دو فصلنامه مطالعات ادب اسلامی
دوره ۲، شماره ۱، پیاپی ۳، پاییز و زمستان ۱۴۰۱

نصف سنوية دراسات الأدب الإسلامي
السنة ۲، العدد ۱، التسلسل ۳، خريف وشتاء ۲۰۲۲

المفردة القرآنية عند محمد "أبو القاسم" حاج حمد

زينب عبدالعزيز*[۱] (كلية العلوم الإسلامية، جامعة باتنة-۱ الحاج لخضر، الجزائر)

تاريخ دريافت: ۱۴۰۰/۰۱/۲۶ تاريخ الوصول: ۲۰۲۱/۰۴/۱۵
تاريخ پذيرش: ۱۴۰۰/۰۴/۲۶ صفحات: ۱۷-۳۰ تاريخ القبـول: ۲۰۲۱/۰۷/۱۷

الملخّص

يهدف هذا المقال إلى إبراز رؤية المفكر والفيلسوف السوداني الراحل محمد "أبو القاسم" حاج حمد (١٩٤٢-٢٠٠٤م) للمفردة القرآنية التي يماثلها باللغة الرياضية الرصينة؛ فهي عنده لا تشابه ولا ترادف أي مفردة قرآنية أخرى لأنها ترتقي لمصاف المصطلح العلمي الدقيق حيث تحمل معنى دلاليا واحدا لا يتعدّد ولا يختلف باختلاف الموضع وتبدّل السياق. ولهذا فقد تناولنا في البداية مدخلا مفاهيميا يحدّد المصطلحات الأساسية في هذا المقال، ثم أوجه الشبه والاختلاف بين اللغة العربية واللغة القرآنية عنده لأنه يفرّق بينهما ويعتبر اللغة القرآنية لغة مثالية متعالية، وبعدها تعرضنا للعائد المعرفي للغة والبنائية اللغوية القرآنية؛ حيث يختلف التصور المعرفي العربي واستخدامه للغة عن التصور المعرفي الإلهي واستعماله للغة، وبالتالي تختلف معاني المفردات بين الاستخدام العربي والإلهي وكذا تختلف التركيبة والبنائية اللغوية القرآنية عن التركيبة اللغوية العربية الشعرية أو النثرية. وأخيرا تطرقنا لبعض معاني المصطلحات القرآنية عنده. وخلصنا في النهاية إلى جملة من النتائج أهمها أن اللغة القرآنية لغة مثالية أدخلت البعد المنهجي والغيبي للغة العربية ودفعت بها إلى أوج كمالها الحضاري، والمفردة القرآنية ذات عائد وتصور معرفي قرآني كوني توحيدي مختلف عن التصور العربي الذاتي.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الكون، المصطلح القرآني، اللغة القرآنية، اللغة العربية، محمد أبو القاسم حاج حمد.

واژه‌های قرآنی در اندیشه محمد أبوالقاسم حاج حمد

چکیده

هدف این مقاله، برجسته کردن دیدگاه محمد "أبو القاسم" حاج حمد، مفکر و فیلسوف سودانی (۱۹۴۲-۲۰۰۴م)، درباره واژه‌های قرآن است که او آن‌ها را با زبان ریاضی دقیق مقایسه می‌کند. برای وی، هیچ دو واژه‌ای در قرآن وجود ندارد که مشابه یا مترادف باشند، زیرا به نظر او معنای هر واژه به سطح علمی دقیق می‌رسد و یک مفهوم دلالی یکتا را بیان می‌کند که با تغییر مکان و تغییر متن به هیچ وجه تغییر نمی‌کند. به همین دلیل، در آغاز به بررسی مقدمه‌ای مفهومی پرداختیم که واژگان اصلی این مقاله را مشخص می‌کند. سپس شباهت‌ها و تفاوت‌های بین زبان عربی و زبان

[۱] البريد الإلكتروني: zineb.abdelaziz@univ-batna.dz

قرآن را مورد بررسی قرار دادیم، زیرا او این دو را از یکدیگر متمایز می‌کند و زبان قرآن را به عنوان یک زبان ایده‌آل و نیکوترین زبان معتبر می‌داند. سپس به بازگشت معرفتی زبان و ساختار زبانی قرآن پرداختیم، زیرا تصور معرفتی عربی و استفاده از زبان تفاوت‌هایی با تصور معرفتی الهی و استفاده از زبان دارد. بنابراین معانی کلمات بین استفاده عربی و الهی متفاوت است و همچنین ساختار و سازه زبانی قرآن نسبت به ساختار زبانی عربی شعری یا نثری متفاوت است. در پایان به بررسی برخی از مفهوم‌های قرآنی به تفصیل پرداختیم. در نهایت به نتیجه‌گیری‌هایی رسیدیم که مهمترین آنها آن است که زبان قرآن زبانی ایده‌آل است که جنبه روش و ماورایی زبان عربی را وارد کرده و آن را به اوج تمامیت‌اش در تمدن سوق داده است، و مفهوم قرآنی بازدهی و تصوری معرفتی توحیدی دارد که از تصور عربی خود متمایز است.

کلمات کلیدی: قرآن کریم، هستی، اصطلاح قرآنی، زبان قرآن، زبان عربی، محمد أبوالقاسم حاج حمد.

۱– المقدمة

لعل أهم وأكبر مبحث قرآني تناوله المتقدّمون والمتأخّرون خلال دراساتهم للقرآن الكريم ومحاولة سبر معانيه، هو المبحث اللغوي، حتى قيل إن علوم اللغة العربية ما قامت إلا لكي تحفظ القرآن من التحريف والتصحيف، كما وجُعل شرط الإلمام باللغة العربية من الشروط الواجب توفرها في المفسر لكي يجوز له غوص غمار التفسير والبحث في معاني كلام الله، ولهذا فقد تنوعت وتعدّدت الدراسات اللغوية القرآنية، وكان لكل دارس ومفسر طريقته ومنهجه وخلاصاته ونتائجه المختلفة تارة، والمتفقة مع بعضها تارة أخرى.

وإذا ما جئنا إلى عصرنا هذا؛ فإننا نجد المفكر والفيلسوف والسياسي السوداني محمد "أبو القاسم" حاج حمد (ت٢٠٠٤م)، قد أدلى بدلوه كذلك في هذا المبحث، خصوصا في كتابه الجامع والموضِّح لمشروعه الفكري القرآني التوحيدي "جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية". إلا أن طريقته مختلفة قليلا عما عهدناه؛ فقد جمع بين المناهج الغربية والعربية، وتجاوزهما دون أن يطغى عليه لا المنهج الغربي ولا المنهج العربي نحو منهج مستَخرَج من القرآن نفسه، والذي ينظر إلى المعاني والدلالات من داخل القرآن لا من خارجه، ويرتفع بالواقع إلى القرآن لا أن يُنزل القرآن إلى الواقع.

وفي مقالنا هذا سنركز على جزئية المفردات القرآنية عنده، والتي أولاها عناية خاصة، وعكف لوقت طويل من عمره يحاول وضع معجم خاص بالمفردات القرآنية، حيث تكمن رؤيته الرئيسة للمفردة القرآنية على أنها مصطلح رياضي دقيق منضبط منسحب على كل المواضع التي ذُكر فيها المصطلح، فلا ترادف ولا تشارك في معاني المفردات القرآنية، كما توسّع في إدراج المفردات القرآنية التي ترتفع إلى درجة الاصطلاح إلى كل المفردات القرآنية لأنها تحمل دلالات قرآنية خاصة ومهمة، وعليه؛ فقد طرحنا الإشكالية التالية لنبحث أكثر في هذا الموضوع: كيف تعامل حاج حمد منهجيا ومعرفيا مع المفردة القرآنية؟

كما وتفرعت عن هذه الإشكالية الرئيسة التساؤلات الفرعية الآتية:

- ما هو الفارق بين اللغة القرآنية واللغة العربية؟
- وكيف عالج حاج حمد مسألة العائد المعرفي لكي يقف على معاني المفردات؟
- وكيف ارتقت عنده المفردة القرآنية إلى درجة الاصطلاح؟

وسنحاول السير وفق المنهج الوصفي مستخدمين آليتي الاستقراء والتحليل، للوصول إلى الأهداف الآتية:

- بيان أن لحاج حمد نظرة جديدة للقرآن الكريم تستحق لفت الأنظار إليها ودراستها.
- توضيح كيفية ارتقاء المفردة في القرآن الكريم لدرجة الاصطلاح الدقيق المنضبط.

وعليه؛ فإن المحاور التي سنسير عليها هي كالآتي:

أولا–مدخل مفاهيمي

ثانيا–أوجه الشبه والاختلاف بين اللغة العربية واللغة القرآنية

ثالثا–العائد المعرفي للغة والبنائية اللغوية القرآنية

رابعا–نماذج لمفاهيم بعض المصطلحات القرآنية

أولا– مدخل مفاهيمي: وسنحاول فيه توضيح المفاهيم الأساسية التي يدور حولها هذا المقال؛ وعليه سنتناول تعريف القرآن الكريم عنده لكي نقف على رؤيته لطبيعة القرآن والتي على أساسها سنفهم طبيعة تعامله مع أجزائه وتراكيبه، كما سنقف على تعريف (المفردة)، كما سنقوم بتعريف موجز للشخصية التي سنتناول جهودها الاصطلاحية اللغوية القرآنية بالدراسة.

١. تعريف القرآن الكريم عند حاج حمد: يختلف التعريف الذي وضعه حاج حمد للقرآن، عما عرفناه من تعاريف كلاسيكية تصف فقط الشكل العام والمضامين الرئيسة للقرآن دون ولوج لداخله، فحاج حمد تجاوز هذه التعريفات ليدخل إلى صلب القرآن ويبرز حقيقته، وبأنه الكتاب الحاوي لكل شيء، والهادي المتروك بين يدي الناس إلى يوم الدين.

فالقرآن عند حاج حمد هو المعادل «بالوعي للوجود الكوني وحركته ممتدا عبر الزمان والمكان، فهو المكنون ليكتشف والمجيد الذي لا يبلى والكريم متجدد العطاء» (حاج حمد، ٢٠٠٣: ١٠٣)، ولأن هذا التعريف يبدو مبهما، فسنحاول توضيح المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها، والتي استخرجها حاج حمد من قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الواقعة: ٧٧–٨٠):

– كونية القرآن: يشابه حاج حمد ويماثل بين الكتاب المسطور (القرآن) والكتاب المنثور (الكون)، بل ويجعل من القرآن المنشأ «لوعي يعادل نظام الكون، ولا أدل على ذلك أن القرآن يحوي في أغلب سوره على آيات تدل على نظام الكون ككل، ثم تربط ذلك النظام بحادثة تاريخية ما» (محمد الشريف، ٢٠١٩: ١٥٦).

– مكنونية القرآن الكريم: فالقرآن مثل الكنز المخفي، الذي يحثّ الإنسان عن البحث عن معانيه والوقوف على حقيقتها، لكن القرآن لا يكشف عن معانيه كلها دفعة واحدة لأي كان، بل يعطى

للإنسان بقدر ونسبة معينة تناسب تطوره الفكري والحضاري والعلمي، وهذه الميزة تجعله متجاوزا للمناهج التاريخية التي تحصر عطاء القرآن في أطر تاريخية ضيقة، وفي فهم أناس معينين، وتلغي مطلقية المعنى المتكشف عبر تطور العقل البشري، فالقرآن إنما يعيش لحظات متعددة، تكشف في كل واحدة منها عن مكنوناته وخباياه (محمد الشريف، ۲۰۱۹: ۱۵۷).

– مجيدية القرآن الكريم: التي تجعله دائم الاستمرار والوجود في الأزمنة والأمكنة المختلفة، لأنه متكشف بصورة دائمة؛ «فقد تعززت إطلاقية القرآن الكريم بصفة الديمومة حتى صار دائما لا يتدنى، إذ لو أنه (على سبيل الفرضية) تحول في لحظة زمنية محددة إلى كتاب خرافي أو كتاب له ما يزاحمه، لفقد مجيديته وبريقه» (محمد الشريف، ۲۰۱۹: ۱۵۷).

– كرم القرآن: إن الكرم «دليل على العطاء، لكن ما يضيفه هنا فيلسوفنا هو التجدد، فلكون القرآن مجيدا لا ينهار ولا يتهافت، لاعتبار أنه مكنون، فإن العطاء لا بد أن يتجدد. فالمقدمة الأولى وهي مكنونية القرآن تجعل من القرآن معطى يحتاج إلى استكشافه، لكنه في حاجة إلى مقدمة ثانية وهي المجيدية، فقدر القرآن أنه لا يبلى من كثرة العطاء، وبهذا يكون ما يكشف عنه القرآن ذا عطاء معرفي، لهذا يحمل صفة الكريم أي العطاء المتجدد» (محمد الشريف، ۲۰۱۹: ۱۵۷).

ومنه؛ فالقرآن الكريم عند حاج حمد هو المعرفة المعادلة للكون وحركته ممتدا عبر الزمان والمكان، وهو المكنون ليكتشف والمجيد الذي لا يبلى والكريم متجدد العطاء. ويلاحظ على هذا التعريف التشبيه الكبير والعلاقة الهامة بين القرآن والكون، والتي ستظهر جليا كذلك في المفردة والحرف القرآني.

۲. تعريف المفردة والكلمة واللفظ: سنعرض هنا معاني كل عبارة، لكي نقف على الفرق بينها ونعلّل اختيارنا لعبارة المفردة.

– تعريف المفردة: يعود أصلها إلى الفعل (فَرَدَ) والذي على الوُحْدَة (ابن فارس، ۱۹۷۹: ٤/٥٠٠)، والوتر (الجوهري، ۱۹۸۷: ۲/٥١٨)، والذي لا يختَلط بِهِ غَيره (الكفوي، ۱۹۹۸: ٦٩٤)، وهو المميّز المفروز المعزول عن غيره (عمر، ۲۰۰۸: ۳/١٦٨٦). ومنه؛ فالمفردة تحمل معاني الانفراد والوحدة والتميّز والتفرّد، ولهذا رأينا أنها الأمثل لوصف كلمات القرآن، لأنها حقيقة تحمل معاني ودلالات مختلفة عن غيرها من المفردات كما سنقف عليه في قادم المحاور.

– تعريف الكلمة: وأصلها من (الكَلِمْ) الذي يحمل معنى التجريح (الجوهري، ۱۹۸۷: ٥/٢٠٢٤)، ومعنى الكثرة والقلة، فتطلق على الحرف والمفردة والجملة والقصيدة الكاملة (ابن منظور، ۱۹۹۳: ١٢/٥٢٤). وهذا ما يجعل معناه فضفاضا ونحن نروم التعيين والتحديد، ولهذا استخدمنا المفردة.

– تعريف اللفظ: وتتركّز معانيه في الرمي، (الجوهري، ١٩٨٧: ١١٧٩/٣)، والطّرح من الفم (ابن فارس، ١٩٧٩: ٢٥٩/٥)، فنقول: لفَظ الشَّخْصُ بالكلام: نطَق به وتكلَّم (عمر، ٢٠٠٨: ٢٠٢٢/٣). وعليه؛ نلاحظ على هذه العبارة طغيان معاني الرمي والإخراج والتي لا تناسب المقام القرآني الإلهي، ولهذا تجاوزناها أيضا إلى المفردة.

٣. التعريف بمحمد أبي القاسم حاج حمد: هو سياسي ومفكر وكاتب ولد بالسودان عام ١٩٤٢، لم يتحصل على أي شهادة جامعية، حيث شقّ طريقه عن طريق التثقيف الذاتي ليتقلّد العديد من المناصب السياسية، ويشارك في الكثير من الملتقيات والمؤتمرات حول العالم، ويترك وراءه العديد من المؤلفات الفكرية الثرية. توفي بالسودان عام ٢٠٠٤م بعد أن عاش طوال حياته مسافرا سائحا بين البدان (عبد العزيز، ٢٠٢١: ٣٥٢).

ثانيا– أوجه الشبه والاختلاف بين اللغة العربية واللغة القرآنية: إن نظرة حاج حمد للغة القرآن الكريم ستمنح لنا رؤية إجمالية عن الفارق بينها وبين اللغة العربية، وعن عدم ارتباطهما ببعضهما، وتعالي القرآن عن الحيثيات المكانية والزمانية والثقافية والفكرية للمجتمع العربي ولغته، ثم سيتبدى الفرق بين المصطلحات القرآنية ومفردات اللغة العربية، كما ستكشف لنا عن اختلاف الرؤية القاسمية عن باقي الحداثيين الذين يتخذون من اللغة العربية وارتباطها بفكر وثقافة البيئة الصحراوية المدخل لضرب القرآني والتشكيك في إطلاقيته وصلاحيته لكل زمان ومكان.

تتميز اللغة العربية _حسب حاج حمد_ بالمطلق الذاتي؛ المتمثل في كون الفرد العربي يحمل منظورا وتصورا وإحساسا ناحية الكلمات العربية تختلف عن غيره من العرب، مما ينفي الترادف والتشارك في المعنى بين الكلمات التي تبدو لنا متشابهة المدلول؛ فالقصائد والأشعار إنما هي إسقاطات وجدانية وحالات نفسيّة وتصورات ذهنية وتجارب حصريّة تخصّ صاحبها وفقط، حيث قد تصل مفاهيمها ومعانيها إلى غيره ممن يقرؤها وقد لا تصل، وبهذا كان العربي هو الأعلم بلغته وبما تخفيه من أسرار، وإسقاطات تصورية، ومحمولات مدلولية، كما وجسّدت هذه اللغة البناء الحضاري الوحيد للعربي (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٣٨٦)، البناء الكامل القائم على الذات المبدعة المتميّزة عن غيرها، والمعبّرة عن حياتها وعلاقتها بما حولها من موضوعات وتجارب (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٣٨٩).

فاللغة العربية هي حقل دلالي خاضع للتجربة التاريخية العربية (بوحناش، ٢٠١٣: ٢٠٢)، فهي بالتالي مرتبطة بشكل مباشر بالحالة الذهنية والمعرفية والثقافية للعربي، وإذا ما أخذنا بهذه اللغة ودلالاتها فإننا وبكل بساطة نكون قد قيّدنا القرآن بالواقع الذي نزل فيه (حاج حمد، ٢٠١٠: ١٨–٢٠). ولهذا، جاء

القرآن متجاوزا لهذه اللغة ودلالاتها ومرتفعا بها إلى أوج كمالها، موجّها صدمة كبيرة للعربي الذي ظنّ أنّه بلغ الكمال فيها وما من أحد يجاريه فيها؛ فعجز عن أن يأتي بمثل ما أتى به القرآن بالرغم من أن القرآن والكلام العربي من أصل نفس المادة؛ فكانت اللغة بمثابة الأداة الغيبية التي أثّرت في العربي أشدّ التأثير، وغيّرت نفسه من الداخل، لأن اللغة كانت نابعة من داخله ومن صميم إحساسه ومشاعره، ومعبّرة عن مختلف تجاربه وخبراته. كما جاء القرآن من خارج البيئة والتجارب التي مرّ بها العربي واعتاد عليها، ومنفتحا على تجارب ممن لا يملك العرب أدنى فكرة عنهم، بعدما كانت القبيلة وقضاياها، والصحراء وما احتوته آخر سقف حدودي له ولفكره (حاج حمد، ۲۰۰٤: ۳۸۹-۳۹۱).

وعليه؛ فاللغة العربية هي لغة وجودية، تمثّل رمز وجود الذات العربية، وتحمل صفاته الاجتماعية والسلوكية والحضارية والثقافية، أما اللغة القرآنية فإنها أرقى من اللغة العربية. كما أسهمت اللغة القرآنية في إدخال بعد غيبي للغة العربية، وانعكس دور هذا البعد الغيبي في شقين رئيسين؛ أولهما هو الكمال الحضاري الذي دفع باللغة العربية إلى أوجها، وثانيهما هو المحتوى القرآني المتجاوز لما اعتاده العربي؛ فاصطبغت اللغة القرآنية على هذا الأساس بتصور إلهي بحت، مغاير للمطلق الذاتي الذي تميزت به اللغة العربية.

ثالثا– العائد المعرفي للغة والبنائية اللغوية القرآنية: سنتعرض في هذا المحور لبيان العائد المعرفي للغة والذي يحكم على معاني المفردات، وذلك بالتفريق بين العائد المعرفي العربي والعائد المعرفي القرآني، ثم سننتقل إلى توضيح البنائية اللغوية القرآنية وتركيبتها المنتظمة المتسقة المشابهة لمحكم تركيب الكون.

١. نظرية العائد المعرفي للغة عند حاج حمد: علمنا فيما سبق أن اللغة العربية ذات مطلق ذاتي، وأن اللغة القرآنية لا تحمل هذا المطلق الذاتي العربي، بل تحمل مطلقا قرآنيا خاصا بها لأنها جاءت مترفعة ومرتفعة باللغة العربية، وذات انفتاح على الإنسانية كلها وغير منحصرة في البيئة العربية الصحراوية لوحدها، وفي هذا المحور سنحاول إبراز الفرق بين التصور العربي والتصور القرآني في فهم وتوضيح دلالات المفردات القرآنية.

تحكم الكلمة ثلاثة أبعاد تتمثل في؛ الكلمة في حد ذاتها، ثم المعنى الذي تشير إليه، وبعدها التصور الذي تثيره في الذهن عند استحضار هذه الكلمة، وفي اللغة العربية، فإن التصور الذهني محكوم بطبيعة البيئة الصحراوية والثقافة القبلية والتجارب السائدة والمتكونة لدى العربي (حاج حمد، ۲۰۰۳: ۹۹-۱۰۰).

والمولى عزّ وجل أشار إلى أن القرآن ليس نتاجا عربيا، بل هو متجاوز له، وأن «اللغة ليست مجرد كلمات دالة على مسمى دون وسيط مشكِّل للتصور الذهني، فالكلمة تستدعي تصوّرا معينا مقيّدا في دلالاته إلى بيئة تاريخية وثقافية معيّنة والقرآن ينحو في دلالات المفاهيم إلى الضبط والمنهجية على غير ما هو شائع وسائد ومتغيّر في ذهنية العائد المتصور» (حاج حمد، ٢٠٠٣: ٩٩)، حيث يقول تعالى: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى**﴾ (النجم: ٢٣)، فالمطلق الذاتي العربي لم يعد هو المرجع الذي يعطي للأشياء معانيها بل هو القرآن نفسه (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٣٩٢).

كما أن العائد المعرفي للغة يطرح مسألة المعرفة المنهجية الداخلية للقرآن الكريم؛ فنقصد القرآن عند محاولتنا لفهم معاني مفرداته وتراكيبه من خلال النظر إلى كل المواضع التي ذكرت فيها المفردة ومحاولة الوقوف على بعض الأمور المشتركة بينها، والتمعن في الاستخدام الإلهي لها حتى يتضح لنا معناها من القرآن، وليس أن نسلك طريق فهم العربي لها، وهو أصلا كان لا يعلم معاني الكثير من المفردات والتراكيب، بالإضافة إلى أن تصوّره المقيّد للبيئة والتجارب الشخصية هو الذي يحكم على المعاني (حاج حمد، ٢٠٠٣: ٢٠٩)، وبالتالي يصبح النظر إلى معاني القرآن من خلال الشائع عند العرب محل نظر ونقاش، لا أن يسلّم به، ويجبَر على السير وفقه.

وعليه؛ فإن العائد المعرفي للغة القرآنية يختلف اختلافا كبيرا عن العائد المعرفي للغة العربية؛ لأن الأولى لغة أرقى وأكمل وأنضج وأوسع من اللغة العربية التي هي عبارة عن مطلق ذاتي للشخصية العربي وتحمل تصورات ذهنية خاصة بالبيئة العربية الضيقة والتجارب الحياتية والتاريخية المحصورة، بالإضافة إلى أن اللغة القرآنية ذات بعد عالمي منفتح على موروث البشرية ومتفاعل معه ومتجاوز له، كما أن العائد المعرفي للغة القرآنية يطرح مسألة معالجة مفردات القرآن من داخل القرآن لا من خارجه.

٢. البنائية اللغوية القرآنية: بعد أن عرفنا نظرية العائد المعرفي للغة القرآنية التي يتبناها حاج حمد، يجب أن نعلم كيف ينظر حاج حمد إلى بنائية القرآن، والتي تختلف أيضا عن البنائية اللغوية لأي نص شعري أو نص نثري؛ فالقرآن الكريم محكوم ببنائية دقيقة منضبطة وذو نص واحد ثابت لا يتغير، ومتصل بعضه ببعض نتيجة الترتيب الأخير الذي استقر عليه (حاج حمد، ٢٠٠٣: ٩٦).

كنا قد أشرنا سابقا بأن حاج حمد يشابه بين القرآن والكون، وحتى في قضية النص القرآني وأصغر مكون له وهو الحرف فقد شابهه حاج حمد أيضا بمواقع النجوم في السماء؛ فالحرف متموضع في

مكانه المحدّد من النص القرآني كما أن النجم متموضع في موضعه الدقيق من السماء، وإذا اختل أي منهما أو سقطا فقد اختل البناء كله (حاج حمد، ۲۰۰۳؛ ۹۶)، حيث يقول تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الواقعة: ۷۵-۸۰)، حيث قرن بين مواقع النجوم وحفظ القرآن، والتي استخرج حاج حمد منها بأن المقصود هو البنائية الحرفية القرآنية المتموضعة بشكل دقيق وتحفظ البناء القرآني كله، كما أن البنائية الكونية مترابطة ومتناسقة مع بعضها البعض، إذا تحرك موقع نجم من مكانه أصبح البناء الكلي في خطر الانهيار.

كما أن للحرف القرآني وظيفته الخاصة ضمن «الإنشاء القرآني الذي ليس هو مجرد بلاغة فقط؛ فالاستخدام الإلهي للمادة اللغوية ولأي مادة في الكون يختلف نوعيا عن الاستخدام البشري مع وحدة خصائص المادة. فحين يستخدم الله اللغة العربية في التنزيل فإنه يستخدمها وفق مستوى إلهي يقوم على الإحكام المطلق فلا يكون في القرآن مترادفات توظيفا ضمن جناس وطباق، إذ تتحول الكلمة ضمن الاستخدام الإلهي إلى (مصطلح دلالي) متناهي الدقة... فلكل كلمة في القرآن دلالتها المفهومية المميزة وذلك خلافا للاستخدام البشري البلاغي العفوي لمفردات اللغة» (حاج حمد، ۲۰۰۳: ۹۷).

ولهذا؛ فإن البحث في مدلول الكلام الإلهي المغاير لمدلول كلام العربي يقتضي «قاموسا (ألسنيا معرفيا) يستند في تحديد دلالات ألفاظ القرآن المنهجية والمعرفية إلى نظرية (العائد) المعرفي أو المرجع أو الوسيط» (حاج حمد، ۲۰۰۳: ۹۸).

أما بالنسبة للمفردات القرآنية؛ فإن حاج حمد يشير إلى إن استخدام «القرآن للمفردة اللغوية يعطيها الطابع المرجعي المرتبط بدلالة المفردة أينما استخدمت في القرآن، فحين نتعرف إلى دلالة المفردة اللغوية القرآنية فإننا نسحب ذلك على كل استخداماتها في كل الكتاب» (حاج حمد، ۲۰۰۳: ۲۱۳)، ولهذا اعتبرها مصطلحا دقيقا ينسحب معنى المصطلح الواحد منه على جميع مواضعه في القرآن الكريم، ويفهم السياق من خلال مفهوم ذلك المصطلح وليس العكس، ولهذا يجب الحرص على فهم معنى المفردة كما يريد منا القرآن أن نفهمه، والذي ينحو في ذلك سبيل التقنين المعرفي من داخل القرآن نفسه، ويستبعد «ما هو شائع في الاستخدام اللغوي من مترادفات، لهذا نتعرف على كل مفردة بدلالة استخدامها في القرآن. وبهذا المنطق نفسه تكشف المفردات القرآنية عن حقائق المعاني فلا نلجأ للتأويل وللانتقائية أو تعليل ما يبدو لما متعارضا بالتوفيق بين ظاهر المتعارضات أو إيجاد علم

وهمي لناسخ ومنسوخ» (حاج حمد، ٢٠٠٣: ٢١٤). وعليه، فلا ترادف بين مصطلحات القرآن الكريم، ولا نسخ ولا تعارض بينها أيضا.

فمما تقدم، يمكننا القول بأن البنائية اللغوية القرآنية مشابهة للبنائية الكونية؛ حيث يتموضع كل مكوّن للنص القرآني في مكانه الثابت دون أي تغيير أو ترادف أو سقط أو نسخ، ولكل مكوّن وظيفة خاصة به، حيث يمكن لحرف واحد أن يحدث تغييرا كبيرا في المعنى، ولعل أشهر مثال على ذلك، هو مفردتي (المس) و(اللمس)، والتي انسحب معناهما على أحكام فقهية كثيرة، مثل لمس المصحف؛ فحاج حمد يفرّق بينهما، واستخرج معناهما من داخل القرآن، ليخرج بأن اللمس يخص الجانب المادي، والمس يخص الجانب المعنوي، وحينما قال تعالى: ﴿**لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ (الواقعة: ٧٩)، فإنه يقصد الطهارة المعنوية وليس التطهير الحسي (حاج حمد، ٢٠٠٣: ٩٨).

رابعا– نماذج لمفاهيم بعض المصطلحات القرآنية: بما أن حاج حمد دعا إلى استخراج معاني المفردات القرآنية من خلال المنهجية المعرفية القرآنية الداخلية؛ فإنه لم يتركنا دون بعض الأمثلة والنماذج لمفردات وقف على معانيها؛ وإن كان قد شرع في إعداد معجم لدلالات مفردات القرآن، ولكن الأجل لم يسعفه قبل إتمامه (الحاج، ٢٠٠٥). وهنالك من دعا إلى وضع معجم المصطلحات القرآنية المعرَّفة في مؤلفات حاج حمد، حفظا لها وتسهيلا على الباحثين للرجوع إليها والسير على منوالها (بوكرن، ٢٠١٤).

وفيما يأتي سنقف على بعض النماذج المصطلحية التي شرح معناها حاج حمد، والتي تبدو لقارئ القرآن أنها متشابهة:

الف– مصطلحات (الرؤية والنظر والبصر والشهود): ميّز الحاج حمد بين هذه المفردات، بإعطاء كلّ منها مفهوماً مغايراً، وهذا تفصيلها كما جاء عنده:

– الرؤية: وقال فيها: «لا نعني بالتجربة المرئية ما يتعلق برؤية الله المنزّه عن الشكل والتجسيم ــسبحانه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ــ وقد طلب موسى (رؤية) الله عبر (النظر)، بمعنى أن يرفع عوائق الرؤية الحسية أو حجابها ليمكن النظر ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الأعراف: ١٤٣)» (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٢١٤).

– **النظر**: وربط مفهومه «بالمخيال والتأمل وقوى الإدراك خلاف (الرؤية الحسية) بالعين المجردة: ﴿**فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا**﴾ (الأنعام: ٧٧). فالنظر عقلي والرؤية حسية، ولهذا قال الله: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ (القيامة: ٢٢-٢٣). فهنا يتعلق النظر إلى الله بالوجه وليس العين المجردة التي ترى في حين أن العقل هو الذي يدرك قيمة الأمر وينفعل به» (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٢١٤).

كما أضاف في سياق شرحه للمفهوم رؤيا سيدنا إبراهيم حول ابنه إسماعيل، فقال: «ولهذا خاطب إبراهيم ابنه إسماعيل بالنظر في أمر الرؤيا المنامية، أي تقليب الرأي فيها، ثم اتخاذ قرار قاطع كمن يرى الأمر عياناً في حقيقته: ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ (الصافات: ١٠٢). فموسى قد طلب الرؤية العيانية المباشرة ليتمكن بعدها من النظر العقلي في حيثية الإله _سبحانه_ فكان (التجلي) وليس الرؤية. فعبر التجلي يقدّر موسى جانباً من خصائص الألوهية المنزهة» (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٢١٤). ووضّح أن «لغة القرآن واستخدامه للمفردات العربية إلى درجة المصطلح دقيقة للغاية، حيث ربط النظر بالعقل والرؤية بالعين المجردة» (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٢١٤).

– **البصر**: وقال فيه: «ميز القرآن بين البصر والرؤية العينية، فالبصر إدراك ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ**﴾ (غافر: ٥٨)» (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٢١٥).

– **الشهود**: وجاء في بيان معناه: «ميّز القرآن بين شهود الأمر بمعنى حضوره وبين رؤية الأمر بالعين. وهكذا قال: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ (البقرة: ١٨٥)... ولم يطلب الله في هذه الآية رؤية الشهر، وذلك لأن الشهر لا يُرى بالعين وإنما ترى الأهلة» (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٢١٤). أما الأهلة فهي: «توقيت يضبط في كل عام برفقة الحجيج في عرفات: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ**﴾ (البقرة: ١٨٩)، فأن يشهد الإنسان الشهر يعني أن يكون حالاً حين توقيته، ولا علاقة لذلك برؤية الهلال كما يعتقد الكثيرون» (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٢١٤).

ب– مصطلحي التقديس والتحريم: وقد فرق حاج حمد بين المصطلحين كالآتي:

– **التقديس**: مصطلح يطلق على أرض المسجد الأقصى، وهي الأرض التي أمر الله بني إسرائيل بدخولها حين قال: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ (المائدة: ٢١)، والتقديس يأتي تاليا للتسبيح، حيث يقول تعالى: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ (البقرة: ٣٠)؛ فالتسبيح تنزيه عن كافة المتعلقات، والتقديس يرتبط بالمتعلقات ذات الخصوصية الإلهية، أي صفة مضافة، كالأرض التي

تقدّس لتعلقها بخصوصية إلهية: ﴿**إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾ (طه: ١٢) (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٣٤٠).

– **التحريم**: ويطلق على مكة، لقوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**﴾ (الإسراء: ١)، ويتجه التحريم إلى الذات الإلهية المنزّهة، والتحريم أخطر من التقديس؛ لأن التحريم مرتبط بالذات، والتقديس مرتبط بالمتعلقات (حاج حمد، ٢٠٠٤: ٣٤٠). ومن هنا؛ فقط تعرفنا على بعض المصطلحات التي يبدو أنها تحمل معاني متقاربة، لكنها وفق المعرفية القرآنية غير متشابهة، بل لكل مصطلح معنى دقيق ينبغي الانتباه له؛ فالبصر إدراك، والشهود حضور، والرؤية حسية تتم بالعين، والنظر عقلي، والتقديس مرتبط بالمتعلقات، والتحريم متعلق بالذات.

الخاتمة

بعد هذه الجولة العلمية في موضوع (المفردة القرآنية عند محمد "أبو القاسم" حاج حمد)، يمكننا الخروج بالنتائج الآتية:

القرآن الكريم عند المفكر والكتاب السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد هو المعرفة المعادلة للكون وحركته ممتدا عبر الزمان والمكان، وهو المكنون ليكتشف والمجيد الذي لا يبلى والكريم متجدد العطاء، ويلاحظ على هذا التعريف التشبيه الكبير والعلاقة الهامة بين القرآن والكون.

اللغة العربية لغة وجودية، حيث تمثل رمز وجود الذات العربية، وتحمل صفاته الاجتماعية والسلوكية والحضارية والثقافية، أما اللغة القرآنية فإنها أرقى من اللغة العربية. كما أسهمت اللغة القرآنية في إدخال بعد غيبي للغة العربية، وانعكس دور هذا البعد الغيبي في شقين رئيسين؛ أولهما هو الكمال الحضاري الذي دفع باللغة العربية إلى أوجها، وثانيهما هو المحتوى القرآني المتجاوز لما اعتاده العربي؛ فاصطبغت اللغة القرآنية على هذا الأساس بتصور قرآني مغاير للمطلق الذاتي الذي تميزت به اللغة العربية.

العائد المعرفي للغة القرآنية يختلف اختلافا كبيرا عن العائد المعرفي للغة العربية؛ لأن الأولى لغة أرقى وأكمل وأنضج وأوسع من اللغة العربية التي هي عبارة عن مطلق ذاتي للشخصية العربي وتحمل تصورات ذهنية خاصة بالبيئة العربية الضيقة والتجارب الحياتية والتاريخية المحصورة، بالإضافة إلى أن اللغة القرآنية ذات بعد عالمي منفتح على موروث البشرية ومتفاعل معه ومتجاوز له، كما أن العائد المعرفي للغة القرآنية يطرح مسألة معالجة مفردات القرآن من داخل القرآن لا من خارجه.

البنائية اللغوية القرآنية مشابهة للبنائية الكونية؛ حيث يتموضع كل مكوّن للنص القرآني في مكانه الثابت دون أي تغيير أو ترادف أو سقط أو نسخ، ولكل مكون وظيفة خاصة به، حيث يمكن لحرف واحد أن يحدث تغييرا كبيرا في المعنى.

إن المصطلحات القرآنية التي تبدو لنا أنها تحمل معاني متقاربة، هي في الحقيقة ليست بمتقاربة ولا متشابهة إذا ما وظفنا المنهجية المعرفية القرآنية لمعرفتها؛ ولهذا فإنه على سبيل المثال لا الحصر، مصطلح البصر يحمل معنى الإدراك، ومصطلح الشهود يحمل معنى الحضور، ومصطلح الرؤية يتعلق بالجانب الحسي الذي يتم بالعين المجردة، ومصطلح النظر يُقصد به الجانب العقلي، ومصطلح التقديس مرتبط بالمتعلقات، ومصطلح التحريم متعلق بالذات.

المراجع

بوحناش، نورة. (٢٠١٣). نحو قراءة حداثية للقرآن تاريخية النص وآفاق الانفتاح على سطوح النص عند أركون. *قضايا إسلامية معاصرة*، مج. ١٧، ع. ٥٣-٥٤.

بوكرن، مصطفى. (٢٠١٤/٠٥/١٤). معجم المصطلحات القرآنية المعرّفة في مؤلفات محمد أبو القاسم حاج حمد. https://www.mominoun.com

الجوهري، إسماعيل. (١٩٨٧). *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*. بيروت: دار العلم للملايين.

حاج حمد، محمد أبو القاسم. (٢٠٠٣). *منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية*. بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.

حاج حمد، محمد أبو القاسم. (٢٠٠٤). *جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية*. بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.

الحاج، عبد الرحمن. (٢٠٠٥). *رسالة لصاحب العالمية الثانية بعد رحيله*. http://almultaka.org/site.php?id=426&idC=7&idSC

عبد العزيز، زينب. (٢٠٢١). ثنائية الفكر والواقع عند المفكر محمد "أبو" القاسم حاج حمد. *وقائع المؤتمر الدولي الأول: التنوع المعرفي ودوره في تمكين الرقي المجتمعي*. بغداد: دار الكتب والوثائق الوطنية ببغداد.

عمر، أحمد مختار. (٢٠٠٨). *معجم اللغة العربية المعاصرة*. القاهرة: عالم الكتب.

ابن فارس، أحمد. (١٩٧٩). *معجم مقاييس اللغة*. بيروت: دار الفكر.

الكفوي، أبو البقاء. (١٩٩٨). *الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية*. بيروت: مؤسسة الرسالة.

محمد الشريف، الطاهر. (٢٠١٩). *التكامل الابستيمولوجي في الممارسة المعرفية التوحيدية*. رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة باتنة ١، الجزائر.

ابن منظور، جمال الدين. (١٩٩٣). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.